

## نظريات العقل \*

مسألة العقل هي مسألة المعرفة ، وهي مبنية على هذا السؤال : هل تتلقى النفس العلم وهي لا تملك من أمر تصريفه شيئاً ؟ أم أنها قوة إيجابية لها ذاتها المبدعة المستقلة عن التجربة ؟

وقد بدت تباشير هذه النظرية عند الأولين في تفريقهم بين المعقول والمحسوس ، وفي تعليل بعضهم لجهل الناس باستسلامهم إلى الحواس وما تأتي به الحواس ؛ وكان هيراقليط يقول إن الحكمة هي معرفة العقل ، وكان يعتبر جوهر العقل غير متميز عن جوهر الوجود - الذي كان يعتقد أنه النار الأولى . ومما دفع بهؤلاء الفلاسفة إلى الازدراء بالحواس ، أنه كانت لهم نظريات ميتافيزيقية عن الوجود وأصله لم تكن الحواس لتستسيغها أو تقييم الدليل عليها .

فلما جاء سقراط ، قال بأن الحقيقة فطرية في الإنسان ، والدليل على ذلك أننا عند تأمل أفكارنا وأعمالنا تنكشف لنا جهالاتنا ، ومعرفة الجهل تدل على وجود الحقيقة فينا ؛ ولولا ذلك ما جاز لنا أن نحكم على شيء بأنه جهل وخطأ لأن ذلك يستلزم أن يكون لنا فكرة عن الحق والعلم ،

\* المجلة الجديدة ، يوليو ١٩٣٥ م .

والسبيل إلى معرفة هذا العلم هو تأمل النفس والاستعانة بالاستقراء  
والتعريف والقياس .

وسار أفلاطون على نهج أستاذه ، ولكنه كان يعتقد أن التذكر هو  
مفتاح المعرفة الحقة ، لأنه كان يعتقد أن الإنسان - قبل هبوطه إلى هذا  
الوجود - كان يعيش في عالم مثالي ، وأنه في حياته السفلى هذه يحتفظ  
بالحقائق الأولى ، ولكنها تكون في سبات ، وتعود إليها اليقظة إذا امتحن  
الإنسان العالم المحسوس ، فأدى امتحانه هذا إلى تذكر الحقائق الأولى ؛  
فالعلم تَدَكَّر .

واتفق أرسطوطاليس مع أفلاطون وسقراط في رأيهما أن موضوع العلم  
هو الماهية أو ذات الشيء ، ولكنه بَسَّطَ في الشرح فقال إن العقل  
عقلان : سلبى وإيجابى ( العقل الفعال ) مثلها مثل الطبيعة ، فيها  
المادة التى يمكن أن تتخذ أى صورة ، وفيها العلة الفاعلة التى تحدد  
للأولى صورة خاصة ؛ أما العقل السلبى فهو مادة الفكر ، وهو يتصل  
دائماً بالتجربة والإحساس ، معتمداً على الاستقراء فى استخلاص  
الأفكار العامة ، وعلى القياس فى الاستنتاج من هذه الأفكار . ولكن  
هذه العمليات تحتاج إلى مبادئ عقلية تنظمها وتبئى لها اليقين ، لأن  
العلم لا يقوم على التجربة وحدها . . وهذه المبادئ تعرف بالبداهة ،  
ووسيلة البداة العقل الفعال ؛ فالعقل الفعال هو الذى يبين عن  
العقول فى محسوسات العقل السلبى ، وهو إذا انعدم انعدمت معه كل  
حقيقة عقلية وتَعَدَّرَ العلم .

والفلسفة الرواقية والأبيقورية تعد نواةً للفلسفة التجريبية ، وقد أبرزت الرواقية عمل الإرادة في التفكير وتكوين العلم ، أما الأبيقورية فجعلت من الإحساس أساس كل معرفة . ثم جاءت الأفلاطونية الحديثة والفلسفات المسيحية ، وهى فى جملتها لم تبدع جديدًا فى عالم الفكر ، وعاشت على حساب الفلسفات القديمة ، وكان العلم حينذاك أن يجد الباحث فى الحوادث المتغيرة ماهيةً ثابتةً تبلغه ما يريد من معرفة الله .

وفى القرن السادس عشر تغير مجرى العلم ، وجعل ديكارت من العقل علة الحقيقة والعلم ، فكان متمماً فى الواقع لأفلاطون . وتفسير ذلك أن فلاسفة ذلك القرن كانوا سيئى الظن بالقرون الوسطى ، غير مؤمنين بجلالها العظيم ، فمالوا إلى التحرر من قيودها بالشك العقلى ، وكان طبيعياً بعد ذلك أن يتحروا الوضوح والجلء والبساطة فى فلسفاتهم . ووجد ديكارت فى العلوم الرياضية مثلاً كاملاً للعلم اليقيني الواضح الجلى ، فأراد منهج الفلسفة - وكانت تشمل بحث الله والنفس والطبيعة - على أن يكون على مثال المنهج الرياضى ، فيسير العقل فيه من البسيط إلى المركب ، من المبادئ العقلية البديهية اليقينية إلى الظاهرات المركبة ؛ فهنا مبادئ عقلية تكشفها البداهة ، وعلاقات ذهنية تربط بين هذه المبادئ وتركب منها العلم ، وتوجد لها حركة فكرية هى الاستنتاج القياسى ؛ فالعقل هو الذى يقيم بناء العلم بالكشف عن مبادئه وإيجاد العلاقات بينها .

فديكارت كان يعتقد أنه توجد بالعقل أفكاراً بسيطةً جليةً واضحةً  
نعرفها بالبدهة والتأمل الباطنى ، فإذا بلغنا معرفتها استطعنا أن نستنتج  
منها علم النفس وعلم الطبيعة ؛ وهذه الأفكار مثل النفس والامتداد  
وغيرهما .

وقد يعترض معترض فيقول : لك أن تعتقد أن أفكار النفس والامتداد  
أفكار بسيطة جلية ، وأنها توجد في النفس بالفطرة بحيث إن البدهة  
تكفى للكشف عنها ، ذلك أن تستنتج من هذه الأفكار ما شاء لك  
الاستنتاج حتى يخيل إليك أنك أنشأت علماً . . ولكن من يدريك أن  
هذه الأفكار تقابل حقائق في الوجود الواقعى ، فتعبر فكرة النفس عن  
نفسٍ حقيقية في الإنسان ، وفكرة الامتداد عن ماهية ثابتة تكون هذه  
الظواهر المحسوسة أعراضها ؟ وما الذى يمنع من أن تكون جميع هذه  
الأفكار أوهاً نفسٍ خلقها الفكر من عندياته ؟

وديكارت لا يقيم دليلاً في الواقع على إثبات واقعية هذه الأفكار ،  
ولكنه يبرر حقيقتها ، فيقول إن معنى الشك في حقيقة هذه الأفكار هو  
أن الله يخدعنا ويرمى بنفوسنا فى الضلال ، لأنه هو الذى خلق عقولنا ،  
وهو الذى جعلها بحيث تعتقد أن ما تراه فى الفكرة حقيقة فى الوجود ؛  
ولو صح ذلك فالله خادع . ولما كان هذا الوصف مما يتره عنه الله ، ولما  
كان الله صادقاً ولا يمكن أن يرقى الشك إلى صدقه ، فاعتقادنا فى  
أفكارنا حق ؛ وهكذا يضمن الله اليقين العلمى ، ويتغلب على الشك  
الذى يهاجم به عادة المذهب العقلى .

وهذا المنهج العقلي أو الرياضى الذى قال به ديكارت اتبعته المدرسة الديكارتية التى كان من أبرز فلاسفتها ملبرانش وسبينوزا .

ويناقض الفيلسوف الإنجليزى لوك هذه المدرسة كل التناقض . فعند ديكارت الرياضى هى مثل العلم اليقينى ، والقياس مثل المنهج الحق ؛ أما لوك فلا يرى أمثل من علم الطبيعة ولا منهج الاستقراء ، وقد هاجم ما سماه ديكارت بالأفكار الفطرية أو المبادئ العقلية التى تولد معنا ، قائلاً إن هذه الأفكار لا يمكن أن تكون طبيعية ، بدليل أن الأطفال والهمج لا تدرك لها معنى ، وأنها تحتاج للتعلم والاجتهاد حتى يستقر معناها فى النفوس .

وقد شَبَّهَ النفس بلوحة ملساء ، وقال إن التجربة والحواس هى التى تملأ تلك اللوحة بمختلف الصور والمعانى ، وإن العقل موهوب بقوة التمييز والتركيب ، فيستطيع أن يكون من هذه الأفكار البسيطة أفكاراً عامة .

والتحليل والتركيب يمكن أن يفسرا كيفية تكوين تلك الأفكار التى دعاها ديكارت فطرية ، فهو يفسر مثلاً فكرة الله بأنها أتت من ملاحظة الإنسان لنفسه ومَلَكَاته ، وتخيُّله هذه القوى فى درجات غير متناهية من القوة والكمال ، فينتهى بتصوّر كائن كامل ، وقد يخيل إليه - كما فعل ديكارت - أن فكرته بسيطة فطرية تنكشف بالبداهة العقلية . فالعقل يكون بالتجربة - الخارجية والداخلية - جميع ما فى عقلنا من أفكار .

وقد حاول ليبنتز أن يوفق بين هاتين الفلسفتين ، وكان رياضى النزعة مثل ديكارت ، ولكنه أراد أن يوسع آفاق العقل وينوع مناهجه .

وقد وافق لوك على نقده للأفكار الفطرية التى بنى عليها ديكارت فلسفته ، فحَقُّ أن جهل الأطفال والهمج لهذه الأفكار يشكك فى وجودها الفطرى فى الإنسان . ولكنه لاحظ من ناحية أخرى أن التجربة والملاحظة لا يكفیان لتفسير جميع الحقائق العقلية ، فالتجربة مثلاً فردية ، فهى نسبية ، ولكن توجد حقائق عامة ضرورية ، أى أن العقل لا يمكن أن يتصوّر نقيضها . فالمبادئ الفطرية موجودة ولكنها لا تبرز إلى الشعور فى كل حين ، وإنما لا بد لها من التجربة لتجعلها حقيقة معلومة ، ولتخرجها من القوة إلى العقل .

والحقائق تنقسم إلى نوعين ما بين فطرية ، وآتية من التجربة أو حقائق الوقائع ؛ والأولى ضرورية شاملة ، نقيضها محال مثل  $2 + 2 = 4$  ، والثانية هى التى تُعرف بالحواس أو الشعور مثل أى واقعة تاريخية .

أما دافيد هيوم فيستأنف فلسفة لوك ، ويُرجع كل المعرفة إلى التجربة الخارجية والداخلية ، وينكر الأفكار الضرورية إنكاراً تاماً ؛ ويزيد على لوك فيقول أن ليس للعقل قوة فعالة أو قدرة له على التركيب أو التحليل ، ولكنه فى الجملة يخضع لقوانين تتصرف فيه كما تتصرف القوانين الطبيعية فى الطبيعة ؛ فتصوّر النظام النفسى على مثال النظام الطبيعى ، وفرض

وجود قوانين تسيطر على العالم النفسى كقانون الجاذبية الذى يحكم فى الظواهر الطبيعية ؛ وهذه القوانين النفسية هى قوانين التداعى والترابط ، هى التى تجعل من مجموعة الإحساسات والأحيلة والعواطف نظاماً عملياً يوهننا بانتظامه أنه يعتمد على مبادئ فطرية ضرورية نقشها الله فىنا ، وقوانين الترابط هى التشابه والاقتران فى الزمان والمكان والسببية ؛ وعلى أساس ذلك يفسر قانون السببية فيقول إن معنى هذا القانون هو أننا عندما نلاحظ مقدمات معينة نتوقع نتائج معينة ، فمن أين لنا هذا التوقع ؟ أهو آتٍ من طبيعة الأشياء ؟ كلا . . لأننا لا نرى فى الواقع إلا ظاهرات متتالية ، ولا نلاحظ قوةً ضرورية تجعل السابق علةً جبريةً تُحدِث اللاحق . فمن أين لنا هذا الاعتقاد إذًا ؟ . . من قوانين الترابط والعادة ، فنحن نرى الحادثتين المتتاليتين - اللتين تربطهما بالسببية - دائماً معاً ، وهو اقترانٌ فى الزمان والمكان ، ثم إننا نرى دائماً أبداً نفس المقدمات ونفس النتائج . . وهذا تشابه ، وبالتكرار المتتابع تتكون العادة ونتوقع تأثيرها ، وبفعل القوانين المذكورة نستنتج نتائج معينة عندما تظهر لنا مقدمات معينة .

وجملة القول أن العقل هنا لا عمل له إلا تَلَقَّى مختلف الإحساسات والمشاعر والتأثر بالقوانين المترابطة .

وقد تَلَقَّى كانط هذه الفلسفات فلم يقتنع بادعاء الميتافيزيقا أو بفسولوجية العقل كما تَصَوَّرَها لوك ودافيد هيوم . وقد وضع المسألة التى

طال النزاع عليها بين العقلين والتجريبيين في هذا السؤال : هل المعرفة العقلية Apriori ( المستقلة عن التجربة ) ممكنة ؟ وأجاب بالإيجاب ، وميَّزَ منها ثلاثة أنواع :

(١) القضايا الرياضية .

(٢) مبادئ علم الطبيعة .

(٣) القضايا الميتافيزيقية (على الأقل في رأى مَنْ يؤمنون بالميتافيزيقا) .

وكان يرى أن العقل يتصور الأشياء في حدود طبيعته ، وأنه يقدرها من خلال قواعده الطبيعية ( أو صوره ) ، ولكن هذه القواعد الأولى لا يستعملها العقل إلا عندما تقدم له التجربة مادة المعرفة .

ومن هنا يتضح لنا أنه ميَّزَ بين شيئين في المعرفة : مادة المعرفة ، وهو ما تأتي به الحواس ؛ وصورة المعرفة ، وهو ما تضيفه النفس إليها . فالمعرفة التجريبية هي امتزاج المادة بالصورة ، أو هي المادة كما يراها العقل خلال صوره . وهذا هو موضع الطرافة عند كانط ، فهو يريد أن يقول إن علم الأشياء لا يقدم لنا الأشياء كما هي في ذاتها ، ولكنه ليس أوهامًا وصورًا لا تتعدى حدود العقل . .

هو يعرض لنا الوجود خلال صور العقل ، يعطينا الوجود كما يمكن أن نتصوره على قدر طاقة القوانين العقلية . وعلى ذلك فهو يختلف عن أتباع الإيدياليزم .

كذلك الصور العقلية عند كانط تختلف عن الأفكار الفطرية عند ديكارت وليبتز لأن العقل عند المدرسة الديكارتية يستطيع أن يدرك الماهيات كالله والنفس ، أما الصور العقلية فهي - قوانين العقل بوجه عام - ليس لها موضوع خاص ، وإنما جميع الظاهرات التي تتصل بنا تخضع لها وترتبط تبعًا لها .

وقد تكلم على ثلاث درجات من المعرفة : ما تقدمه الحواس ، وهو الموضوع أو الظاهرات ، والعقل التجريبي ، وهو الذى يخلق المبادئ والصور لربط الظاهرات ؛ والعقل المجرد ، وفي صميمه ميل نحو الوحدة ، فهو يتجاوز حدود التجربة ويخلق مسائل لا يمكن حلها . ثم يأخذ كانط بعد ذلك في عرض الصور العقلية وإقامة الدليل على عجز العقل عن بلوغ المطلق أو معرفة ماهيات الأشياء .

وبعد كانط اتصفت الحقائق الأولية بأنها شاملة وضرورية ، وذلك يرجع - كما نعلم - إلى أنها صور العقل ، فهي لا يمكن أن تتصور على نحو آخر ، ولو أنها كانت نتيجة للتجربة لما أمكن أن تتصف بالشمول والضرورة ، لأن التجربة نعرفنا بحالة خاصة في زمن خاص ؛ أما تقرير القانون في جميع الأحوال وفي جميع الأزمنة فمقرر بالعقل وليس بالتجربة ، ولكن المدرسة التجريبية الإنجليزية التي خلفت مدرسة دافيد هيوم لم تسلم بهذا التفسير ، وإن اعترفت بوجود اعتقاد عام يصدق في هذه الحقائق العامة الضرورية . وقد فسرها ستوارت ميل تفسيرًا سيكولوجيًا ،

فقال عن الضرورة إن كل فكرتين توجدان معًا أو متواليتين تستدعى الواحدة الأخرى تبعًا لقانون تداعى المعانى ، وإذا وُجِدَ فكرتان دائمًا معًا ؛ يرتبطان فى العقل وتتصور - لدوام ارتباطهما - وجود علاقة ضرورية بينهما ؛ أما شيوخ هذه الحقائق بين الناس جميعًا فراجع إلى أن البشر بطبيعتهم مسوقون لإتيان بعض تجارب خاصة تنتج عنها تصورات الحقائق الأولية ، وعلى ذلك فليست الحقائق الأولية صورًا عقلية فطرية ، إنْ هى إلا آثار التجربة التى خضعت لقانون التداعى ورَسَّخَهَا الزمن والتكرار .

ومن رجال هذه المدرسة سبنسر ؛ وقد اعتمد فى تفسير العقل ومبادئه الأولى على نظرية التطور والوراثة ، كما استعان بالفسيولوجيا ؛ ولم يختلف مع ستوارت ميل اختلافًا جوهريًا ، لأنه كان مثله يرى أن العادة والتداعى هما أساس تكوين الصور العقلية . ولكنه كان يقول إن التجربة الفردية لا تكفى ، وأحَلَّ محلها تجربة الأنواع التى تؤتى ثمرها بفضل الوراثة ؛ فالحالات النفسية المرتبطة ببعضها ، والتى يتكرر حدوثها معًا تكوّن نزوعًا عامًّا يمكن أن يُتَوَارَكَ ويسير نحو الرسوخ الكامل حتى يأخذ صورته النهائية فى المبادئ العقلية .

والذى يوضح الوراثة أكثر أنه عند سبنسر الحياة النفسية توازى الحياة المادية وتتبادل معها الآثار ، بحيث إن كل حالة نفسية يقابلها مثلها فى الجهاز العصبى ؛ فارتباط فكرتين مثلاً يقابله اشتباكٌ فى المخ ، وبذلك

تتكون - على مرور الأجيال - المبادئ العقلية التي يظن أنها فطرية ، وهو ظن له ما يبرره .

ومما تجب ملاحظته هو أنه لما كانت هذه المبادئ نتيجةً للتجربة الموروثة آثارها ، ولما كانت التجارب قابلة للتغير ، فالمبادئ العقلية ليست نهائية كما يعتقد البعض .

ويبرر هذا رأى سبنسر عن العقل ، فهو عنده توافقٌ يسير دائماً نحو الكمال بين النفس والطبيعة .

ووجدَ في العصر الحديث نُقَادًا للعقل - مثل كانط - غايتهم تحديد مبادئه ووضعها في جدول منتظم منطقي ، ولكنهم يختلفون مع كانط في فهمهم معنى العقل . فكانط كان يرى العقل مَلَكَهً خاصة مميزة عن الإحساس ، أما النقاد الجدد ، رينوفيه وهملن ولينخ ، فيوسعون في مفهومه حتى يشمل الإحساس والإرادة .

وهؤلاء النقاد يتحدون في الغاية ، وهي ترتيب مبادئ العقل (المقولات) ؛ ويختلفون في المنهج . فرينوفيه ولينخ يعتمدان على التجربة في تحديد المبادئ ، وهملن يعتمد إلى التحليل العقلي .

ودوركيم يرى كذلك أن العقل مجموعة مبادئ ، يخضع لها الإنسان في تصوّره للأشياء ، ولكن ليس يكفي أن نعرف ما هي هذه المبادئ وأن نعرف علائقها ، بل يجب أن نتوصل إلى أصولها الأولى ؛ وهذه الأصول عند دوركيم هي المجتمع .

فدوركيم يناقض الذين يقولون بأن الإنسان اجتمع لأن عقله هداه إلى تقدير فوائد الاجتماع ، لأنه يقرر أن العقل نفسه من صنع المجتمع .

والإنسان اجتماعي ، فهو ينشأ على تعلم آراء المجتمع واتخاذ طرقه وأساليبه في التفكير ؛ فإذا اتبته إلى نفسه ولاحظ عقله ، وجد به مبادئ لم يصنعها بنفسه ولم تدخل في حيز تجاربه ، فيسارع إلى التسليم بأنها طبيعية وأنها فطرية ؛ فقانون العقلية مثلاً يمكن إرجاعه إلى الاعتقاد الديني أو إلى الدين الذي هو على رأس الظواهر الاجتماعية عند دوركيم .

وشمول هذه المبادئ بين أشتات الناس المتباعدة يرجع إلى تشابه طبيعة المجتمع في كل مكان ، بحيث إنه لا تنتج عنه إلا مبادئ واحدة لا يستطيع الإنسان أن يتصور وجود غيرها مخالفاً لها .

وظن دوركيم أنه بذلك وَفَّقَ بين التجريبيين والعقليين ، فالعقل ليس صناعة فردية ولا هو هبة طبيعية ، ولكنه وليد المجتمع .

وتعد نظرية وليم جيمس عن العقل رجوعاً إلى المذهب التجريبي ، ولكنه لم يَنْفِ عن العقل دوره الكبير في المعرفة ، فهو يكمل المعرفة الحسية وينظمها ؛ فالمعرفة العقلية هي معرفة حسية مثقفة ، والتجربة اتصال مباشر بين العقل والحقيقة ؛ وليس معنى هذا أنها بلغت الكمال ، فالذي يعوقها هو عدم بلوغ التجربة إلى درجة الكمال ؛ وجيمس في ذلك يختلف عن برجسون ، فبرجسون يرى أن الحقيقة الكاملة مستحيلَةٌ على

العقل ، لأن العقل يغير حقيقة التجربة بما يوافق ما هو مخلوق له من تمهيد سُبُل العمل للإنسان ؛ فالعقل محدود ، ميدانه المادة ، وغايته العمل . ولا يكاد يعرف الأشياء إلا في حالتى السكون والانفصال ، فإذا تطاول لفهم الحياة بدًا عجزه . والسبيل إلى النفاذ فى أعماق الحياة هو البدهة أو البصيرة ، وهى معرفة مباشرة تجعلنا ندمج فى أعماق الحياة ، ونحس بحقيقتها . هى العبقريّة المدعة فى الفن والأخلاق . ومع كل ذلك فبرجسون لا يحتقر العقل لأنه يعتقد أنه إذا اتحد بالبدهة أوجد معرفة الحياة أو الفلسفة ، أما بمفرده فلا يقدر إلا على معرفة العلم أو المادة .

ويجدر بنا أن نشير فى الختام إلى رأى برنشفج عن العقل ، فهو لا يؤمن بالعقليين ولا بالتجريبيين ، ولا يتصور العقل كنظام كامل من المبادئ . فالعقل لا يوجد وهو تام الحلقة ، ولكنه يوجد شيئاً فشيئاً ، وتتقرر له مبادئ وصور فى أثناء اتصاله بالتجربة ؛ وهو يسير نحو الكمال بخطوات مطردة .

فمن هذا نرى أن مسألة العقل ابتدأت بنقد الإحساس ، وتطورت إلى نظريات ديكرات ونقد كانط وتجريبية ستوارت ميل . وفى العصر الحديث تَصَوَّرَ البعض العقل كنظام من المبادئ ، وحاول معرفتها سواء بالعقل أو بالتجربة ؛ وأرجعه آخرون إلى المجتمع ؛ وتكلم عنه غير هؤلاء وهؤلاء من حيث ما يؤدى من وظيفة فى الحياة الإنسانية .

